مكوّن الترتيب في المعاجم العربية
أصنافه ومستوياته

الدكتور أحمد أحمد عمر
(موريتانيا)

مقدمة

ظلت الدراسات المعجمية العربية تهتم بقضايا المعجم العربي من جمع مواده إلى ترتيبه إلى تعريف مواده، وظلت الكتب المؤلفة في هذا المجال تجمع بين دفتيها الكثير من هذه الإشكالات، ما انعكس على طبيعة المخرج؛ حيث لم تركز بحثها على موضوع واحد أو إشكال واحد فتبلغ فيه مبلغها. وإذا استثنينا من هذا الجمع البحوث المحكمة والرسائل الجامعية التي تظهر من حين لآخر، والتي تحاول التركيز على موضوع واحد أو إشكال واحد، فإن موضوع ترتيب المعاجم العربية وإن لم نجد له إهمالا في أغلب الكتب التي ألفت في قضايا المعجم، إلا أننا أيضا لم نجد من قلمه على أظفريه بحيث يقدم فيه القول الفصل، وبالأخص ترتيب المعاجم العربية أفقيا وعموديا أو بعبارة أخرى أنواع الترتيب التي اتبعتها المعاجم العربية من معجم العين إلى المعاجم الحديثة، ومستويات هذا الترتيب عند كل معجم، أو ما يعرف بالترتيبين الخارجي والداخلي لمداخل المعجم.

1: الترتيب الخارجي:

وهو الاعتبار الأول الذي يضعه المعجمي في ترتيب مداخل معجمه؛ أو بعبارة أخرى هو التبويب الأعم الذي يقسم إليه متن المعجم. وقد اتبعت المعاجم العربية طرقا شتى في ترتيبها الخارجي، استطاع بعضها لاشتراكه في المنهج أن يشكل مدرسة يعرف بها وتعرف به، ومن أهم هذه المدارس:

أولا- مدرسة الترتيب الصوتي: وهو الترتيب حسب مخارج الحروف من أقصاها إلى أدناها، ويعتبر الخليل بن أحمد الفراهيدي[1] رائدها، وتبعه في ذلك كل من: أبي علي القالي[2]_ مع اختلاف بسيط في تتابع الحروف_ في "بارعه"، والأزهري[3]

في "تهذيبه"، والصاحب بن عباد[4] في "محيطه"، وابن سيده[5] في "محكمه"، فشكلوا بذلك مدرسة تسمّت باسم هذا الترتيب (مدرسة الترتيب الصوتي).

ثانيا- مدرسة الأبنية: وهي مدرسة قائمة في ترتيبها على الأبنية، وأول من اتخذها ترتيبا لمعجمه ترتيبا خارجيا هو ابن دريد[6] في "جمهرته"، حيث قسمه إلى أبواب، هي: الثنائي الصحيح ويلحق به الثنائي المكرر، فالمهموز، فالمعتل؛ - الثلاثي الصحيح ويلحق به ما كان فيه حرفان مثلان والمعتل الوسط فالمهموز؛ - الرباعي الصحيح ويلحق به المعتل؛ - الخماسي وما لحق به. وتبعه في نظام الترتيب حسب الأبنية الفارابي[7] في "ديوانه"، حيث قسم متن معجمه إلى ستة كتب، هي: كتاب السالم، وكتاب المضاعف، وكتاب المثال، وكتاب ذوات الثلاثة، وكتاب ذوات الأربعة، وكتاب الهمز. فكانت (مدرسة الأبنية).

ثالثا- مدرسة الترتيب الألفبائي: وهو ترتيب نصر بن عاصم الليثي[8] للحروف الهجائية، وقد اعتمدت هذا الترتيب طائفة كبيرة من المعاجم العربية لقرب مأخذه. غير أنه يمكن تقسيم هذه المدرسة إلى مدرستين حسب اعتبارها لأواخر الوحدات المعجمية أو أوائلها، وهما:

أ. مدرسة الترتيب الألفبائي حسب الأوائل: وقد اعتمد هذا الطريق كل من: أبو عمرو الشيباني في "جيمه"، وابن فارس[9] في "مجمله" و"مقاييسه"، والزمخشري[10] في "أساسه"، وكل المعاجم التي ألفت في العصر الحديث ابتداء من "محيط" بطرس البستاني (ت 1300ه/1883م). لتتشكل من هذا التماهي مدرسة تعرف بـــــ (مدرسة الترتيب الألفبائي حسب الأوائل).

ب. مدرسة الترتيب الألفبائي حسب الأواخر: وقد سار على هذا النهج كل من: الجوهري في "صحاحه"، والصغاني[11] في "عبابه"، وابن منظور الإفريقي في "لسانه"، والفيروزآبادي في "قاموسه"، والزبيدي في "تاجه"، فينتج عن هذا الاتفاق في المنهج مدرسة ستعرف بـــــ (مدرسة الترتيب الألفبائي حسب الأواخر).

2: الترتيب الداخلي:

وهو ترتيب داخل ترتيب، لذلك سمي بالترتيب الداخلي؛ حيث يكون المسؤول والحاكم: لنظام الكتب التي تحت الحروف في الترتيب الصوتي، ولنظام الكتب المبوبة عليها معاجم الأبنية، ولنظام الكتب التي تحت الحروف في الترتيب الألفبائي بشقيه (حسب الأوائل، حسب الأواخر).

ويتخذ الترتيب الداخلي لمداخل المعجم هو الآخر أشكالا متنوعة في المعاجم العربية، تختلف من معجم إلى آخر. وتتمحور أشكاله حول:

أولا- نظام الأبنية (الثنائي فالثلاثي فالرباعي فالخماسي)، مع نظام التقاليب[12]، وبتجريد الوحدات المعجمية من زوائدها، أي: الجذر: وقد نهج هذا النهج الخليل في "عينه"، وتبعه فيه كل من: القالي_ مع اختلاف بسيط في عدد الأبنية بأن جعل الخماسي والسداسي بابين_ في "بارعه"، والأزهري في "تهذيبه"، والصاحب في "محيطه" مع اختلاف بسيط يرجع إلى بسطه الثلاثي في ثلاثة أبواب (الصحيح، المعتل، اللفيف)، وابن سيده في "محكمه" مع اختلاف بسيط هو الآخر في تسمية الأبنية وتفصيلها.

ثانيا- نظام الترتيب الألفبائي حسب الأوائل، مع نظام التقاليب، وبتجريد الوحدات المعجمية من زوائدها: و لم يتبع هذا الترتيب الداخلي غير ابن دريد في "جمهرته".

ثالثا- نظام الأسماء والأفعال، ثم الأوزان، ثم الحروف حسب الأواخر، ثم الثواني فالثوالث، فالروابع من وسط الكلمة، مع التجريد من الزوائد: و لم يتبع هذا الترتيب الداخلي غير الفارابي في "ديوانه".

رابعا- نظام الترتيب الألفبائي حسب الأوائل مع التجريد من الزوائد: وأول من اتبع هذا الترتيب الداخلي هو الجوهري في "صحاحه"، وتبعه في ذلك كل من: الصغاني في "عبابه"، وابن منظور في "لسانه"، والفيروزآبادي في "قاموسه"، والزبيدي في "تاجه".

خامسا- نظام الأبواب (الثنائي المضاعف والمطابق، والثلاثي الأصول من المواد، وما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية)، ثم الترتيب الألفبائي داخل هذه الأبواب: واتبع هذا النظام ابن فارس في معجميه "مجمل اللغة" و"مقاييس اللغة".

سادسا- نظام الترتيب الألفبائي حسب الثواني والثوالث مع التجريد من الزوائد: وأول من اتبع هذا الصنف من الترتيب الداخلي هو الزمخشري في "أساسه"، وأصبح هو المنهج المتبع حديثا في ترتيب المعاجم، وقد اعتمده "المعجم الوسيط".

بينما نجد أبا عمرو الشيباني في "جيمه" لم يرتب معجمه أي ترتيب داخلي![13]

غير أنه من الملاحظ أن هذا الترتيب في شقيه (الخارجي والداخلي) وفي جميع أشكالهما إنما يرتكز على ترتيب المداخل فقط ولا يتعداها إلى غيرها؛ ذلك بأن المدخل المعجمي/ الجذر تدخل تحته طائفة كبيرة من الوحدات المعجمية تحتاج هي الأخرى إلى نظام تخضع له، بالرغم من أنها تشترك في الأحرف، إلا أن اشتراكها في الدلالة ليس مطردا، من ما يؤدي إلى بلبلة في ذهن المتلقي الذي يبحث عن معنى وحدة معجمية، فيجد الوحدة المعجمية، لكنها قد تكون بمعنى آخر غير المعنى الذي يبحث هو عنه. وقد ترجمت الباحثة ربيعة برباق هذا بقولها: «...وتجدر الإشارة إلى أن نظرية المدخل الجذري_ بالرغم من تطبيقاتها الواسعة في المعجم العربي_ تواجهها الكثير من المشكلات الدلالية، أهمها: صعوبة تحديد المعنى الأصلي، نظرا للتطور الدلالي الذي حدث للغة عبر القرون الطويلة، بالإضافة إلى غياب الأدلة العلمية عن الوضع الأول أو الأصلي في اللغة».[14] وهو ما يجعل الجذر بمثابة حقيبة يُفترض أن يكون ما تحتويه من جنس واحد والواقع غير ذلك؛ فقد تتباين الدلالات داخل الجذر الواحد «على حد ما تتباعد المعاني بين: دَيْن ومدينة ودِين، أو بين: ضرب السيوف ومضارب القبيلة وضوارب العدد وإضراب العمال...».[15]

وقد أدى هذا الإشكال بكثير من اللسانيين والمعجميين إلى أن يهتموا بمعالجته سيما منهم لإيجاد الحلول المناسبة له، ما دفع ببعضهم إلى اقتراح الاستغناء عن الجذور والاكتفاء بالوحدات المعجمية مشتقة أو غير مشتقة كمداخل للمعجم مما يخفف هذه البلبلة في ترتيب أو تنسيق الوحدات المعجمية للجذر الواحد، وما خروج معجم "الرائد" عن النسق الجذري إلا دعوة عملية لتخطي هذا الإشكال. غير أن هذه الدعوة «لم تلق رواجا بين المصنفين؛ نظرا إلى أن الإشكاليات التي يطرحها على مستوى النظام المعجمي_ على الصعيد الشكلي والدلالي_ أكبر بكثير من تلك التي يطرحها الجذر؛ لأن اللغة العربية ذات طبيعة اشتقاقية لا يمكن إغفالها في المعجم».[16]

بينما سعت بعض الدراسات المعجمية الحديثة إلى إيجاد حلول باقتراح أنواع من الترتيب للوحدات المعجمية داخل المدخل المعجمي/ الجذر باعتبار أحد أنواع الترتيبات التالية:

أولا- الترتيب التاريخي: حيث تكون الوحدات المعجمية داخل المدخل المعجمي/ الجذر خاضعة لزمن ظهورها واستعمالها في اللغة.

ثانيا- الترتيب طبقا للشيوع: وهو أن يراعى في إدراج الوحدات المعجمية داخل المدخل المعجمي/ الجذر الأكثر شيوعا فالأقل فغير الشائع.

ثالثا- الترتيب المنطقي: وفيه يتم التدرج في إيراد الوحدات المعجمية داخل المدخل المعجمي/ الجذر من العام إلى الخاص، ومن المحسوس إلى المجرد، ومن الحقيقي إلى المجازي... «وعلى عكس ما يظنه بعض الباحثين، فإن رواد المعجمية العربية كانوا على علم تام بهذه الأنواع المختلفة من الترتيب. ولكن النوعين الأولين يتطلبان بحثا تاريخيا أو إحصائيا لم تكن أدواته متوفرة آنذاك. ولهذا فإن معظم المعاجم العربية التراثية تبنت الترتيب المنطقي لمعاني المدخل المختلفة».[17] وما نموذج "أساس البلاغة" للزمخشري في تمييزه بين الحقيقي والمجازي إلا نوعا من الترتيب المنطقي.

غير أنه بشكل مجمل يعتمد المعجم العربي في ترتيبه المعاني على شكلين:

- الشكل الأول: الترتيب بالاشتراك، وهو أن تكون المداخل التي تتوافق شكليا مع المدخل الرئيس مدرجة تحته، تابعة له، مع أنها دلاليا قد تكون بعيدة كل البعد عنه. وهو المنهج الغالب على المعاجم العربية.

- الشكل الثاني: الترتيب بالتجنيس، وهو كون اللفظين مختلفين معنى ومتشابهين شكلا، وبذلك يفرد لكل وحدة معجمية مدخل خاص بها، باعتبارها وحدة مستقلة لها معناها الخاص.[18]

«والخلاف بين أصحاب الاشتراك وأصحاب التجنيس في العصر الحديث يكمن في أن الأولين يقولون بأن الكلمة وحدة لغوية لها أصل ثابت، لا يتغير مع الزمن وله مدلولات ثانوية تستخرج من الاستعمال. ويعتبر أصحاب التجنيس الكلمة وحدة كلامية مستقلة بحسب سياقها؛ وعلى هذين الأساسين يدعو الاشتراك إلى الإيجاز في عدد المداخل، ويقر التجنيس تعددها بحسب سياقها ومعانيها المتولدة عنها».[19]

إن نظرة مقارنة بين الشكلين من الترتيب السابقين (بالاشتراك، بالتجنيس) يحصل عندها بالرغم من سرعة الاستفادة من "الترتيب بالتجنيس" تضخم في مداخل المعجم ما يؤدي إلى تضخم فيه هو نفسه، وذلك ما يخالف الطرق التربوية في إعداد

المعاجم. غير أنه من جهة أخرى لا يضمن متناول المعجم المرتب حسب "الترتيب بالاشتراك" الظفر بالمعنى الذي يريده؛ إذ كل المعاني مخلوطة مبثوثة.

إن تدافع مستعمل المعجم بين هذين الإشكالين دفع بالدكتور علي القاسمي إلى اقتراح معالجة يمكنها أن تخفف من وطأة هذا التدافع، وتتخذ حلا لمعضلة ترتيب الوحدات المعجمية داخل المدخل المعجمي الواحد. وذلك من خلال عرضه لنظرية مستنبطة من بعض المعالجات اللغوية عند اللغويين السابقين، مثل نظرية "الأصول" عند ابن فارس، ومنسجمة مع العبقرية اللغوية للغة العربية.

انطلق القاسمي في نظرية من "الجذر" باعتباره المحطة الأخيرة التي توقف عندها الترتيبان (الخارجي والداخلي) من جهة، وباعتباره_ من جهة أخرى_ مركز هذا التشويش؛ إذ كل عدم الترتيب والخلط في الوحدات المعجمية إنما كان في دائرة الجذر.

يحمل "الجذر" سواء كان ثلاثيا أو رباعيا أو خماسيا "معنى أصليا عاما"، وأحيانا أكثر من "معنى أصلي عام". ينقسم "المعنى الأصلي العام" إلى مجموعة من "الأسر اللفظية" لكل واحدة منها (معنى عام)، حين تتلبس هذه "الأسر اللفظية" بلبوس الأبنية الصرفية تُحمّلها "المعنى الصرفي" للبناء الذي تتلبسه؛ ليكون معنى الوحدة المعجمية (س) هو مجموع المعنى الأصلي للجذر + المعنى الصرفي + المعنى الخاص للفظ.

ويمكن التمثيل لتجليات "المعنى الأصلي للجذر" في مشتقاته بالجذر (ع ب ر)؛ فالمعنى الأصلي لهذا الجذر يفيد (الاجتياز أو الانتقال من مكان لآخر). ونجد هذا المعنى الأصلي في الألفاظ المشتقة من ذلك الجذر مثل:

- عبور: الانتقال من ناحية إلى أخرى، مثل عبور النهر أو الجسر، إلخ.
- عَبرة: الدمعة التي تنتقل من العين إلى الخد (أما إذا ترقرقت الدمعة في العين و لم تجتازها فهي ليست بعبرة)
- عبير: الرائحة التي تفوح، فتنتقل من مصدرها إلى المتلقي.
- تعبير: الفكرة التي تنتقل من ذهن المتكلم إلى لسانه، وتخرج على شكل كلام.
- عِبرة: الخبرة أو الاعتبار الذي ينتقل من تجربة فرد إلى فرد آخر.[20]

فالمعنى الأصلي للجذر هنا_ كما هو واضح_ معنى واحد، والأسر اللفظية خمسة، ويمكن تشطير كل أسرة إلى طائفة من المشتقات لكل واحد منها معناه الصرفي الخاص؛ فمثلا في الأسرة اللفظية "تعبير" يمكن أن نجد "مُعبِّر" مثل قولنا (صورة معبِّرة) فمعنى الفاعلية حاصل من الصيغة الصرفية.. وهكذا.

ويمكن توضيح هذه التراتبية بالشكل التالي[21]:

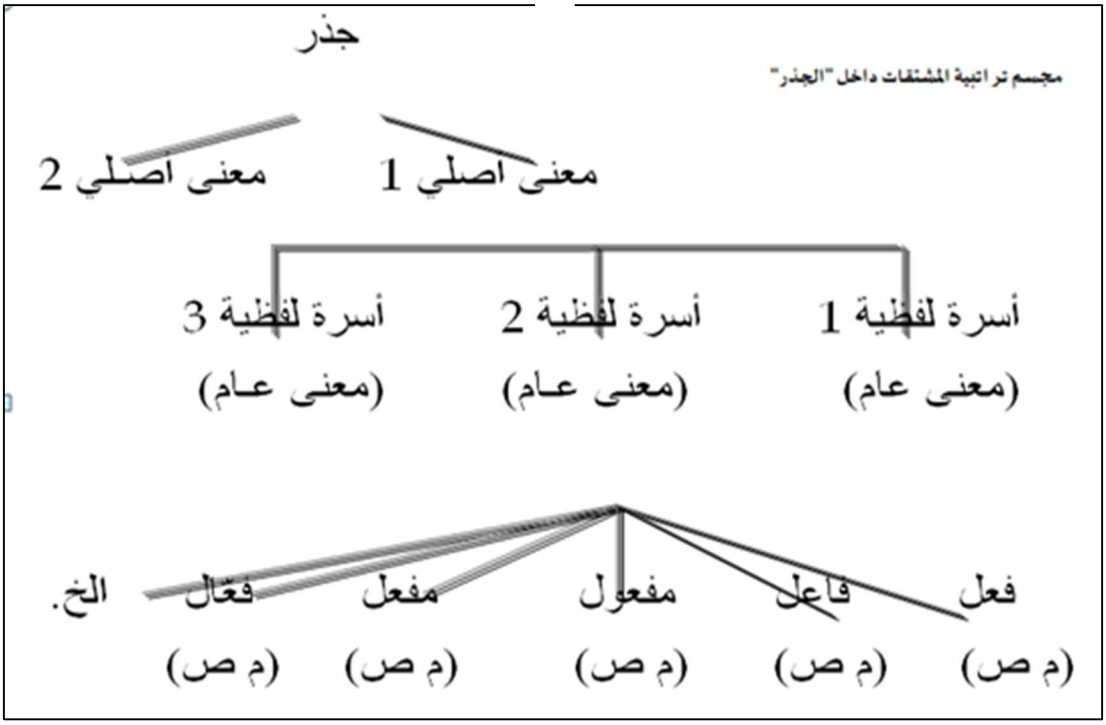

وبالجملة فإن ترتيب وحدات المدخل الواحد وإن كان من بين الإشكالات التي يطرحها إشكال تضخم المعجم، فإن هذا الإشكال تم تجاوزه الآن لظهوره التقانة الحديثة وتطور طرق التخزين سواء كان ذلك التخزين في الأجهزة أو في الشبكة العنكبوتية عن طريق المدونات والمنصات والمواقع...

خاتمة

يمكن انطلاقا مما تقدم تصنيف الترتيب في المعاجم العربية إلى مستويين ترتيب أفقي أي تخضع له جميع مداخل المعجم وهو ما يعرف في أدبيات التأليف المعجمي بالترتيب الخارجي، ولهذا الترتيب أصناف عدة حسب المنهج الذي يعتمد صاحب كل معجم. أما المستوى الثاني للترتيب في المعاجم العربية فهو مستوى عمودي؛ حيث يبدأ عمله من حيث انتهى الترتيب الأفقي، فنتائج الترتيب الأفقي لمداخل المعجم تعتبرا موضوعا له؛ إذ كل طائفة من المداخل يجعلها الترتيب الأفقي قسما خاصا بغض النظر عن الأدوات التي اعتمد مؤلف المعجم في هذا الترتيب إنما هي موضوعا مستقلا لهذا المستوى الثاني من الترتيب الذي يعرف بالترتيب الداخلي، وتختلف أدواته وآلياته هو الآخر من معجم لآخر مثل ما رأينا في العرض.

الهوامش

1. هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، توفي نحو 170ه، من مؤلفاته: "كتاب العين". (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:1636).

2. هو أبو علي إسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيذون البغدادي القالي، مولده:208ه ووفاته:357، من مؤلفاته: "المقصور والممدود"، "الإبل"، "الخيل"، "البارع"... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:1123-1124).

3. هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي، وفاته:370ه، من مؤلفاته: "تهذيب اللغة"، "تفسير ألفاظ المزني"، "علل القراءات"... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:312-313).

4. هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني، وفاته:385ه، من مؤلفاته: "المحيط"، "الكافي"، "الإمامة"... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:1106-1107).

5. هو أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي، وفاته:458ه، من مولفاته: "المحكم"، "شواذ اللغة"، "المخصص"... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:2742-2743).

6. هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري، وفاته:321ه، أخذ عنه: أبو سعيد السيرافي، وأبو بكر بن شاذان، وأبو الفرج الأصبهاني، وأبو عبيد الله المرزباني، وإسماعيل بن ميكال... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:3386).

7. هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركي الفارابي، وفاته:339ه، وقد ذكر صاحب سير أعلام النبلاء أن للفارابي تصانيف مشهورة من ابتغى الهدى منها ضل وحار... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:3663).

8. هو نصر بن عاصم الليثي البصري، وفاته 89ه، من شيوخه: ظالم بن عمرو أو عمر بن سفيان أبي الأسود الدؤلي، من طلابه: أبو عمرو بن العلاء الخزاعي المازني، عبد الله بن أبي إسحاق زيد بن الحارث الحضرمي البصري... (كمال الدين الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط/3، ص:1405).

9. هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، وفاته:395ه، حدث عنه: أبو سهل بن زريك، وأبو منصور محمد بن عيسى، وعلي بن القاسم الخياط المقرئ... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:878).

10. هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي النحوي، مولده:467ه ووفاته:538ه، من مؤلفاته: "الفائق في غريب الحديث"، "أساس البلاغة"، "ضالة الناشد"... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:3800-3801).

11. هو الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي العدوي الصاغاني، وفاته:650ه، من مولفاته: "مجمع البحرين في اللغة"، "العباب الزاخر في اللغة"، "الشوارد في اللغة"... (أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، نشر بيت الأفكار الدولية، ص:1447-1448).

12. يقوم نظام التقاليب على اعتماد الحروف المكونة للجذر، بأن يتم تقليب الجذر على صوره المحتملة (الثنائي = صورتان، الثلاثي = 6 صور، الرباعي = 24 صورة، الخماسي = 120 صورة)، ويتم إيراد كل هذه الصور تحت أسبق الحروف في الترتيب المعتمد في المعجم.

13. تم استخراج هذه الأنظمة من خلال معاينة ذاتية للمعاجم العربية.

14. دة. ربيعة برباق، الدلالة المعجمية عند العرب: دراسة نظرية وتطبيقية، (أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة – الجزائر)، 2011-2012، ص:272.

15. د. عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح، الدار العربية للكتاب، ص:31.

16. دة. ربيعة برباق، الدلالة المعجمية عند العرب: دراسة نظرية وتطبيقية، م.س، ص:272.

17. د. علي القاسمي، (إشكالية الدلالة في المعجمية العربية)، مجلة المعجمية العربية: قضايا وآفاق، ج/3، ط/1، 2016، ص:34-35.

18. دة. ربيعة برباق، الدلالة المعجمية عند العرب: دراسة نظرية وتطبيقية، م.س، ص:282-283.

19. د. محمد رشاد الحمزاوي، من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، دار الغرب الإسلامي، ط/2، 1986، بيروت –لبنان، ص:161-162.

20. د. علي القاسمي، (إشكالية الدلالة في المعجمية العربية)، مجلة المعجمية العربية: قضايا وآفاق، ج/3، ص:28-33.

21. المرجع السابق، ص:32.